الاثر الصوتي وعدم الجمع بين ياء النداء والمعرف بـ (الألف واللام)

الأستاذ المساعد الدكتـــور
رعد هاشم عبود
جامعة ذي قار – كلية التربية

مقدمـــــة :

تطرق البحث النحوي الى بعض مسائل النحو محاولا توجيهها توجيهـــا ينـــسجم مـــع الواقع اللغوي ، من ذلك محاولة الأستاذ إبراهيم مصطفى ومحاولة الـــدكتور المخزومـــي التي تابعت ما بدأه الاول ؛ لما وجداه من ضعف في بعض المعالجات النحوية القديمة .

وتحاول هذه الدراسة السير في ذلك الاتجاه ، بعد أن وجدت ان هناك خللا في تعليـــل عدم الجمع بين (يا) النداء ، وما فيه (ال) من الاسماء في تعليلات القدماء والمحدثين .

اذ كان التعليل يقوم على اساس ان (يا) النداء تجعل من المنادى معرفة ، وما فيه (ال) من الاسماء المناداة يكون معرفا بها ؛ لذا اجتمع على الموضع الواحد تعريفـــان ، وهـــذا غير جائز عند نحاة البصرة ، وقد نقض ذلك بشواهد شعرية جاءت مخالفة لما ادعـــوه ، تحكم فيها الوزن الشعري فحذف بسبب ذلك (الالف) من (يا) النداء فاصبح (يـــ) وكـــان وجود ذلك يمثل المقطع المديد المغلق في حال نداء المعرف بـــ(ال) ، (يال) ، وهو مقطع نادر جدا في اللغة العربية استبدل بالمقطع الطويل المغلق (يل) ، والياء المحركة بـــالفتح والمتبوعة باحد الحروف الشمسية المضعفة بعد الالف واللام ، في الابيات الشعرية التـــي سترد في أثناء البحث ، ناهيك عن مجيء المعارف بعد (يا) النداء ، مثل (هذا) ولم يمنع ذلك من ندائها ، فوجود هذا التناقض بين تعليل النحاة والاستعمال اللغوي ، كان سببا في

ان يعدل عن التعليل القديم الى تعليل يعتمد المعيار الصوتي اساسا له راجيا من الله ان تنال هذه الدراسة الرضا والقبول وهي في الوقت ذاته تتقبل كل نقدٍ يسدُّ الهنات التي ترافق عمل الانسان . ووزعت هذه الدراسة على قسمين هما :

الاول : رأي النحويين في الظاهرة .

الثاني : الأثر الصوتي في تفسير الظاهرة .

القسم الأول / رأي النحويين في الظاهرة :

يكاد النحاة القدماء والمحدثون يكررون العلة نفسها في منع الجمع بين (ياء) النداء وما فيه (ال) من الأسماء ، الا الرضي الذي وجه ذلك توجيها اخر سيرد في اثناء البحث ولم يصب قلب الحقيقة على وفق نظرتنا لهذه المسألة ؛ اذ يرى سيبويه ان سبب ذلك فيما كان مرفوعا من الاسماء بعد (يا) النداء صبرورتها معرفة ، بسبب وقوعها موقع المنادى يزاد على ذلك ان ما كان متصلا (بال) معرفا بها فإذا قلنا مثلا : (يا الرجلُ) وهو ممتنع في عرف نحاة البصرة ؛ لان الرجل معرف بـ(ال) من جهة ومعرف بـ(يا) النداء من جهة اخرى ، فقد اجتمع في السياق تعريفان على كلمة واحدة وذلك غير جائز[١] ، قال سيبويه : ((وزعم الخليل رحمه الله ان الألف واللام انما منعهما ان يدخلا في النداء من قبل ان كل اسم في النداء مرفوع معرفة وذلك انه اذا قال يا رجلُ ويا فاسقُ ، فمعناه كمعنى يا ايها الفاسقُ ويا ايها الرجل وصار معرفة لانك أشرت اليه وقصدت قصده واكتفيت بهذا عن الالف واللام وصار كالاسماء التي هي للاشارة نحو هذا وما اشبه ذلك ...))[٢] ، ومما سبق يتضح ان سيبويه يربط بين رفع الاسم بعد(يا) النداء والمعرفة ؛ يقول موضحا ذلك : ((ومما يدلك على ان يا فاسق معرفة قولك : يا خباثِ ويالكاع ويا فساق ، تريد يا فاسقة ويا خبيثة ويالكعاء ، فصار هذا اسما كما صارت جعار اسما للضبع وكما صارت حذام ورقاش اسما للمرأة وابو الحارث اسما للأسد))[٣] .

لقد رصد سيبويه في النص الاسبق قياس الشبه بين النداء ولفظة (هذا) فكما ان النداء يعني المشار اليه فكذلك لفظة (هذا) تشير الى المشار اليه وان (هذا) معرفة فكذلك يكون المرفوع بعد (يا) النداء ، ولكن (هذا) استعملت في النداء ؛ اذ نقول : (يا هذا) ، فلفظة (هذا) معرفة قبل وقوعها موقع المنادى ووقعت موقع المنادى اذن اجتمع عليها تعريفان وهذا ممنوع في عرفهم فحاولوا تخريج ذلك تخريجاً يغلب عليه الخيال اذ قالوا سُلب منه التعريف وخضع لتعريف النداء[٤] ثم ان ذلك القياس اراده سيبويه لغرض توضيح الشبه لكن النحاة بعده اخذوا ذلك عنه لا لانه قياس شبه ولكن حاولوا تعليل مجيء (هذا) في النداء ، كما أتضح عندهم ، وهو امر لم يرده سيبويه اطلاقا ، ولان سيبويه اعتقد ان كل ما كان مرفوعا من الأسماء بعد (يا) النداء معرفة ، تأول ما جاء من اسماء مرفوعة موصوفة ، بان ما جاء بعدها ليس نعتا ، يبدو ذلك من خلال حديثه في قول الشاعر الطرمّاح :

يا دارُ أقوت بعد اصرامِها عاما وما يعنيك من عامها[٥]

يقول سيبويه في ذلك : ((فإنما ترك التنوين فيه لانه لم يجعل اقوت من صفة الدار ولكنه قال : يا دارُ ، ثم اقبل بعد يحدث عن شأنها فكأنه لما قال : يا دارُ ، أقبل على انسان فقال : أقوت يا فلان وانما أردتُ بهذا أن تعلم أن أقوت ليس بصفة))[٦] ، هذا يعني ان سيبويه يعد (دار) فيما سبق معرفة والجملة بعده ليست نعتا ، كذلك لفظه (بيتُ) في قول الشاعر عمرو بن قنعاس[٧] :

ألا يـــا بيتُ بالعلياء بيتُ ولولا حبُّ أهلك مـــا أتيتُ

ومثل ذلك قول الاحوص[٨] :

يا دارُ حسرها البلى تحسيرا وَسَفَت عليها الريحُ بعدك مورا

إن الذي ألجأ سيبويه الى ذلك التأويل البعيد حكمه المسبق على ان كل ما كان مرفوعا من الأسماء بعد (يا) النداء معرفة ، في حين جاءت الالفاظ (دار ، بيت) فيما سبق نكرة ،

بدليل النعوت الظاهرة والواضحة وضوحا تاما بعدها ، والقاعدة النحوية ترى اذا كان الحكم النحوي ظاهرا فلا حاجة للتأويل . لقد وجّه الاستاذ ابراهيم مصطفى هذه الضمه على المفرد المنادى توجيها اخر ، اذ يرى ان هذه الضمه ليست علامة للمعرفة ، بل هي لفك الاشتراك بالمضاف الى ياء المتكلم[٩] ، وطور الدكتور المخزومي هذه الفكرة بعض الشيء ؛ اذ رأى ان المنادى اذا كان معرفة لم ينون ؛ لان التنوين علم التنكير ، فلو أردنا نصبه غير منون ولا مضاف ، لاشتبه بالمنادى المضاف الى (ياء) المتكلم في بعض حالاته وذلك اذا قلبت فيه (ياء) المتكلم الفا ثم استغني عن الالف بالفتحة نحو: يا عمَّ بفتح الميم ، أي : يا عمّي ، فلزم الضم اتقاء لمثل هذه الشبهة فيقال في ندائه غير مضاف ، يا عمُّ اقبل[١٠] . وهو أمر أوضحه ابن الانباري ايضاحا تاما قبلهما ؛ اذ قال : ((وانما وجب ان يكون مبنيا على الضم لوجهين :

أحدهما : انه لا يخلو : اما ان يبنى على الفتح او الكسر ، او الضم ، بطل ان يبنى على الفتح لانه كان يلتبس بما لا ينصرف ، وبطل ان يبنى على الكسر لانه كان يلتبس بالمضاف الى النفس ، واذا بطل ان يبنى على الفتح وان يبنى على الكسر تعين ان يبنى على الضم .

ثانيهما : انه بني على الضم فرقا بينه وبين المضاف ، لانه ان كان مضافا الى النفس كان مكسورا ، وان كان مضافا الى غيرك كان منصوبا ، فبني على الضم لئلا يلتبس بالمضاف ؛ لأنه لا يدخل المضاف))[١١] .

القسم الثاني / الأثر الصوتي في تفسير الظاهرة :

قلنا سابقا ان معظم النحاة قد اقتفوا اثر سيبويه في العلّة التي اعتل بها لمنع الجمع بين (يا) النداء وما فيه (ال) من الاسماء ، الا في مسألة عد الاسم المرفوع بعدها معرفة ، اذ نقض ذلك ابن الانباري من القدماء ، وابراهيم مصطفى ، وتبعه الدكتور المخزومي من

المحدثين ، لكن الرضي الاستراباذي لم يتقبل علّة سيبويه في منع الجمع بين (يا) النـــداء وما فيه (ال) ، وهو أمر منه جميل ؛ اذ قال :

((وقال بعضهم : انما لم يجمعوا بينهما كراهة اجتماع حرفي التعريف ، وفيه نظر ؛ لان اجتماع حرفين في احدهما من الفائدة ما في الاخر ، و زيادة لا تستنكر ، كما في لقـــد ، وألا أن على ما يجيء في موضعيهما))[١٢] ثم يرد الرضي قولهم في الأعلام وفي اســـم الإشارة عندما تنادى من انها تنكر ثم تعرف بالنداء ، ويرى ان ذلك منقوض بقولهم : يـــا الله ، ويا عبد الله ، يقول معترضا على ما سبق بقوله : ((ولا حاجة الى ما ارتكبا اذ لا منع من كون الشيء المعين مواجها مقصودا بالنداء ، واي محذور من اجتماع مثل هذين التعريفين))[١٣] ومع ان الرضي تنبه الى ضعف علة منع الجمـــع بين (يا) النـــداء ومـــا فيـــه (ال) ، التي اعتمدت معيار الجمع بين اداتي تعريف على معرف واحد الا انـــه في توجيهه لذلك التمس طريقا آخر يقوم على أساسين[١٤] :

الأول : ان اللام معاقبة للتنوين فهي كالتنوين ، ومن ثم قلَّ بناء الاسم معها ، كالخمـــسة عشر واخواته والآن ؛ لذلك استكره دخولها مطردا في المنادى المبني .

الثاني : أن يعرب ، وهو أيضا بعيد لحصول علة البناء ، وهو وقوع المنادى موقع الكاف وكونه مثله في الافراد والتعريف .

ثم نرى الرضي يلتفت الى مسألة على غاية من الأهمية . وهو يتحدث في نداء (يـــا أله) ؛ اذ يكون الأكثر فيها قطع الهمزة ، ويربط بين قطع الهمزة وكونها أصبحت جـــزءً من الكلمة حتى لا يستكره اجتماع (يا) واللام ، يقول : ((فلو كانا بقيا على اصلهما لسقط الهمزة في الدرج ؛ اذ همزة اللام المعرفة همزة وصل))[١٥] . لم يرتض الاستراباذي فيما سبق الرأي السائد في منع الجمع بين (يا) النداء وما فيه (ال) الا انـــه لم يطـــور توجيهه السابق بما ينسجم و الواقع اللغوي لهذا الاستعمال الذي يقوم كما يتـــضح علـــى الجانـــب

الصوتي فقط ؛ لذلك جاءت بعض الأبيات الشعرية وقد اجتمع فيها (يا) النداء وما فيه (ال) من الأسماء كقول الشاعر :

مــن أجلك يـــا التي تيمت قلبي وأنت بخيلة بالودّ عنـــــي[١٦]

وقول الشاعر :

عباسُ يا الملكُ المتــوجُ والــذي عَرَفت له بيتَّ العُــلا عدنانُ[١٧]

وقول الشاعر :

فيا الغلامـــان اللذان فـــــرا إياكما أن تكسبانا شـــــرّا[١٨]

ان الوزن الشعري فيما سبق مهد الطريق للجمع بين (يا) النداء والأسماء التــي فيهــا (ال) ؛ اذ حذفت الالف من (يا) النداء وأستعيض عنها بفتحة ؛ للتخلص من المقطع المديد المغلق الذي لا تستسيغه اللغة العربية[١٩] .

ويتألف من : (صامت وصوت مد طويل وصامت) نحو (باب) وهو النوع الرابــع من المقاطع العربية ، الذي لا يظهر الا في حالة واحدة في اثناء الحشو ، وهــي الحالــة التي يكون فيها بعد قمة المقطع صوت صامت مدغم نحو قولنا : شابّة ، ودابّة ، وحاولت بعض المستويات اللهجية القديمة التخلص من هذا المقطع عن طريق الهمز ، مــن نحــو قولهم : شأبة ، ودأبة[٢٠] .

ولذلك تحول(يا ال) في نداء ما فيه (ال) في الابيات الشعرية السابقة تحت تــاثير وقع الموسيقى الشعرية الى (يَلْ) او الياء من حرف النداء محركة بالفتح مــع الحــرف الشمسي الساكن في الكلمات التي يكون فيها الحرف بعد (ال) شمسيا ، بعد حذف (الالف) من (يا) النداء بوجود همزة الوصل غير المتلفظ بها فاصبحت على مثال (مِــنْ) التــي تمثل شكلاً من أشكال المقطع الثالث الذي يتألف من : (صامت وصــوت مــد قــصير وصامت) ، وليس ببعيد عن هذا ما حصل عند إسناد الافعال الجوفاء الى ضمائر الرفع

المتحركة ؛ اذ نقول : في إسناد الفعل (قال) الى (تاء) الفاعل : (قُلتُ) في حين كان القياس (قالتُ) وقس على ذلك .

ان الذي حاولت إيضاحه وبسطه هذه الدراسة في عدم الجمع بين (يا) النداء وما فيه (ال) من الاسماء ، لم يكن بسبب اجتماع تعريفين على كلمة واحدة ، وانما كان بسبب صوتي بحت وهو كراهة اللغة العربية التركيب الصوتي الذي يتألف من (صامت وصوت مد طويل وصامت) ؛ لذلك ظهر هذا الاستعمال في الشعر ؛ لانه المجال الذي يكون فيه عدم نطق بعض الاصوات مسموحاً به ؛ لمراعاته واهتمامه الكبير بموسيقى الشعر والوزن الشعري ، وعلى هذا يكون مذهب الكوفيين الذي أباح هذا الاستعمال هو الأقرب للواقع اللغوي على وفق التفسير الحديث .

نتائج البحث

توصلت الدراسة الى ما يأتي :-

١- إن التعليلات النحوية القديمة والحديثة لمنع نداء ما فيه (ال) كانت تساير في اغلبها ما قاله سيبويه دون زيادة او نقص ؛ اذ كان تعليله لهذه الظاهرة ، اجتماع تعريفين على معرف واحد وهذا غير جائز عند نحاة البصرة .

٢- لقد رفض الرضي الاستراباذي هذا التعليل لكنه لم يأتِ بما هو أصلح للواقع اللغوي .

٣- إن سبب هذه الظاهرة هو سبب صوتي ، يقوم على اساس كراهة اللغة العربية للمقطع المديد المغلق الذي يرافق نداء ما فيه (ال) من الأسماء ؛ لذلك وقع هذا الاستعمال في بعض الأبيات الشعرية بعد حذف الالف من (يا) النداء انسجاما مع الوزن الشعري ، ليتكون المقطع الطويل المغلق الذي تستعمله اللغة بشكل كبير ودون صعوبة تذكر .

هوامش البحث

١- ينظر الأشباه والنظائر ٣٥٩/١ .

٢- كتاب سيبويه ١٩٧/٢ ، وينظر في ذلك المقتضب ٢٤٩/٤-٢٥١ وشرح المفصل / ابن يعيش ٨/٢-٩ اللذان لم يضيفا شيئا على ما قاله سيبويه ، وينظر شرح ألفية ابن مالك / ابن الناظم / ٥٧٢ . وينظر الأساليب الإنشائية في النحو العربي /١٢٣ ، والنحو الوافي هامش (١) ٣٦/٤ .

٣- الكتاب ١٩٨/٢ .

٤- ينظر شرح المفصل / ابن يعيش ٩/٢ .

٥- ينظر ديوان الطرماح /١٦٢ ، والكتاب ٢٠١/٢ .

٦- الكتاب ٢٠١/٢ .

٧- ينظر نفسه ٢٠١/٢ .

٨- ينظر نفسه ٢٠١/٢ .

٩- ينظر احياء النحو / ٦٣ .

١٠- ينظر في النحو العربي – قواعد وتطبيق /٣٠ .

١١- الانصاف – مسألة ٤٥ .

١٢- شرح الرضي ٣٧٤/١ .

١٣- نفسه ٣٧٤/١ .

١٤- ينظر نفسه ٣٨٥/١ .

١٥- ينظر نفسه ٣٨٤/١-٣٨٥ .

١٦- ينظر الكتاب ١٩٧/٢ ، وينظر المقتضب ٢٤١/٤ .

١٧- ينظر اوضح المسالك ٨٥/٣ .

١٨- ينظر شرح ابن يعيش ٩/٢-١٠ ، وينظر المقرب /٣٧ ، ٨٥ .

١٩- ينظر دروس في علم اصوات العربية / ١٩٢ .

٢٠- ينظر في الأصوات اللغوية / د. غالب المطلبي / ٢٣٩ . وينظر المنهج الصوتي للبنية العربية /٤٠ .

ثبت المصـــــادر

١- احياء النحو / ابراهيم مصطفى – مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر –١٩٥٩م .

٢- الاساليب الانشائية في النحو العربي / عبد السلام محمد هارون – مؤسسة الخانجي بمصر – مكتبة المثنى ببغداد – ١٩٥٩م .

٣- الاشباه والنظائر في النحو / جلال الدين السيوطي / تحقيق : محمد عبد القادر الفاضلي – المكتبة العصرية ، بيروت – صيدا ، ط١ ، ١٩٩٩م .

٤- الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين / لابي البركات الانباري ومعه الانتصاف من الأنصاف ، تاليف : محمد محيي الدين عبد الحميد / دار احياء التراث العربي .

٥- أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك / لابن هشام الانصاري ، ومعه كتاب هداية السالك الى تحقيق أوضح المسالك ، تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الندوة الجديدة ، بيروت ، لبنان ، ط٦ ، ١٩٦٦م .

٦- دروس في علم أصوات العربية / جان كانتينو ، نقله الى العربية وذيله بمعجم صوتي صالح القرمادي ، نشريات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية ، الجامعة التونسية ، ١٩٦٦م .

٧- ديوان الطرماح / للطرماح بن حكيم ، تحقيق : فريتس كرنكوف ، لندن ، ١٩٢٧م .

٨- شرح ألفية ابن مالك/ ابن الناظم بدر الدين بن مالك ، حققه وضبطه وشرح شواهده ، ووضع فهارسه : د. عبد الحميد السيد عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت .

٩- شرح الرضي على كافية ابن الحاجب : الرضي الاستراباذي ، شرح وتحقيق ، د. عبد العال سالم مكرم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٠ م .

١٠- شرح المفصل / ابن يعيش ، دار صادر .

١١- في الأصوات اللغوية ، دراسة في أصوات المد العربية ؛ د. غالب المطلبي منشورات وزارة الثقافة والأعلام ، الجمهورية العراقية ، سلسلة دراسات (٣٦٤) ، ١٩٨٤م .

١٢- في النحو العربي ، قواعد وتطبيق : د. مهدي المخزومي . شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ، ط١ ، ١٩٦٦م .

١٣- كتاب سيبويه / سيبويه ، تحقيق وشرح ، عبد السلام محمد هارون ، عالم الكتب ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٣م .

١٤- المقتضب / المبرد ، تحقيق ، عبد الخالق عضيمه ، عالم الكتب ، بيروت .

١٥- المقرّب / ابن عصفور الاشبيلي – تحقيق ، د. أحمد عبد الستار الجواري ، و عبد الله الجبوري ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٨٦م .

١٦- المنهج الصوتي للبنية العربية ، رؤية جديدة في الصرف العربي / د. عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٠م .

١٧- النحو الوافي : عباس حسن – دار المعارف بمصر ، ط٤ ، ١٩٨٠م .